

العلاقات الهندية العربية قوية منذ فجر التاريخ

الدكتور نارا نهنه

علاقة الهند بالعرب علاقة قوية قديمة منذ فجر التاريخ، علاقة بزغت بصلة العرب حين كانوا يقطعون المسافات البحرية بقواربهم الشراعية المغامرة تعاونهم الرياح القوية الموسمية على السير لتدفعهم قدما نحو المحيط الهندي الى الشواطئ الهندية وكلا الشعبين آنذاك الهندي والعربي كانا مشغولين بتدعيم حضارتهما وتفتيق مداركهما، حيث أوجد تأثيرا قويا وشعورا عميقا وتعاوننا مستمرا من أجل تدعيم هذه الصلة الحضارية والمدنية بينهما مما خلقت روحا تعاونية متبادلة.

ويوجد هناك نوع من التشابه بين الهند والعالم العربي بالإضافة الى اعتبارنا العالم العربي والعالم الهندي عالمين كل واحد منهما متمم للآخر، فالهند أرض تزخر بالأنهار العديدة والأمطار الغزيرة، والجبال العالية، والأراضي الخصبة التي توفر الحياة للنبات والحيوان والانسان، والعالم العربي الكبير هو الآخر وطن الشعب العربي الناطق بحرف الضاد الذي تمتد حدوده من جبال «الزاغروس» الى صحارى ليبيا، ومن تلول «توراس» في الجنوب حتى المحيط، وينحدر بوديان «شط العرب»، ونهر النيل الخالد ويسير على مرتفعات عالية حيث يندر هطول الأمطار وحيث تقل مزارع الخضار.

وفي كلا العالمين الهندي والعربي بزغت واعتلت عدة حضارات ومدنيات كما هبطت وسقطت أيضا، فالهند عاصرتها حضارة ومدنية الحارثيين واليراوديين والآريين، والعالم العربي هو أيضا وجدت فيه حضارة

البابليين والآشوريين والسمرائين والفاستينيين والمصريين ، ويعتبر عصر هؤلاء حصنا لوجود الحضارة القديمة ، وامتدت هذه الحضارات القديمة أكثر في القرون الوسطى بفضل الامبراطوريات الاسلامية العظيمة ، واليوم كلا العالمين الهندي والعربي يتمتعان بالاستقلال والسيادة حيث حصلنا على فوائد جمة بهما لكي يدعمنا تلك الحضارة القديمة المقدسة ، ولكي نستعيد ذكريات كل شئ حتى الويل الذي قاساه معا

وعلى ضوء هذه الحقيقة سارت شعوب العالم العربي والهندي جنبا الى جنب في كسب الحياة والمعيشة ، وفي مشاركة ومبادلة متوجاتهم التجارية وهكذا توثقت الصلة بصورة متينة ، صلة مادية ، وصلة روحية فكرية منذ حقب طويلة ، وبما أن ماضي هذين العالمين جزء لا يتجزأ من حاضرهما فوجدت استحسانا كبيرا أن أستعيد هذا الماضي حتى يجعلنا نعرف الحاضر جيدا اليوم . وهمتي هنا أن أعطي بعض الشئ لمساهمة الهند التي بذلتها لتلك الحضارات والمدن في العالم العربي ، والمساهمة هذه تحوم حول ناحيتين وفي مرحلتين .

المرحلة الأولى هي قبل بزوغ الاسلام ، والمرحلة الثانية بعد بزوغ الاسلام وفي الفترة ما بين هاتين المرحلتين تدعمت العلاقات الحضارية والمدنية نظرا للتعاون المتبادل بين الهنود والعرب ونظرا لالتقاء مصالحهما . ومنذ فجر التاريخ القديم كان اتصال الهند بغرب آسيا معتمدا على الخطوط البحرية والبرية ، ونتج عن هذا الاتصال أن تسربت الحضارة الهندية التي عرفت بالحضارة الهريانية ، والتي اتخذت جذورها من القرن الرابع قبل ميلاد المسيح ، وقد انتشرت هذه الحضارة انتشارا كبيرا في

مناطق نهر « اندس » وفي البنجاب وراجستان وكاتياوار ، وججرات ، وكان انتشارها في هذه المناطق يقوم على التبادل الثقافي والمدني والتجاري . وكثيرون من علماء الآثار يرون أن الفضل لنشر هذه الحضارة يعود الى «الدراودين» الذين ينطقون لغة غير مفهومة ، ويرى البروفسور «فراذكفورت» بأهمية الهاربائين حيث يقول :

«لقد حدث وبدون شك بأن الهند لعبت دورا فعلا في تدعيم المدنية القديمة التي اوجدت الشكل الأصلي لحضارة العالم قبل الحضارة اليونانية» .

الحركة التجارية الرائجة القوية بين الهند و«موسوبوتاميا» أو العراق أثبتت أهميتها وصحتها تلك الختم والبراشم والحروز «لمهانجودارو» والتي وجدت في باطن الأرض التي يمر عليها النهران ، الدجلة والفرات . وهناك عدة روايات وأساطير تحكى عن البحارة الهنود الذين كانوا يتاجرون في هذه المناطق ، منها حكاية بعض البحارة الهنود الذين وصلوا أحد الموانئ في الخليج الفارسي يبيعون غرابا بمائة قطعة من الفضة كما باعوا أيضا طاووسا بمائة قطعة من الذهب وهناك أيضا مبيعات هندية مثل الأخشاب والملابس القطنية والتي ، تعرف باسم «سندا» والأرز ، والقرود ، والطاووس ، والأفيال . وبالإضافة الى هذه المنتجات الهندية المستهلكة سارت وانتشرت معها العقائد الفكرية والدينية ، وازياء العبادة ، وفي «تلبراك» شمال العراق حصل على بعض الآثار القديمة الهندية منها برشم يحمل شكل ثعبان ، وهو «شيفا» آلة الحيوان «باشوباتا» و«دوجرا» راكبا نمرا وهذه كلها وجدت في الآثار البابلية .

وكان الهنود عادة يبحرون من الموانئ الهندية الغربية حيث يدخلون الخليج العربي ويرسون سفنهم في «البحرين» حيث توجد فيها عدة ختوم ونماذج تشير الى الحضارة الهندية النابغة من مناطق نهر «أنديس» ومن خلال الطرق البرية الطويلة جاء الى العراق جنود هنود حيث أسسوا حكمهم في شمالها ويعرفون بـ «الهانيين والتانيين» وهم يشبهون تماما «المادس» في إيران، وأماؤهم يحملون أسماء آرية مثل «دشراتا»، وهم يعبدون الآلهة الهندية «ميتر»، «فارونا»، «اندرا» و«ناسيتا». وقاموا بتدريب الأهل على تربية الخيول، وجلب الكتابة السانسكريتية الى العراق في خلال العهد البابلي.

وكان الفلاسفة يوجدون في غرب آسيا في أثناء العصر الالفي الهندي ويحكى أن أحد البراهمة التقى بالفيلسوف اليوناني «سقراط»، حيث سأل «أنت تدعو نفسك بالفيلسوف ماذا تعنى بذلك؟ فأجاب سقراط بأنه يقوم بدراسة الكائنات الانسانية، فضحك البرهمي بحجة أنه من المستحيل أن يعرف الانسان الأشياء الانسانية في الوقت الذي لم يحسن بعد له ادراك الأشياء المساوية».

و«أشوكا»، هو الآخر شجع مثل هذه الزيارات وأرسل عدة مبشرين الى سوريا ومصر، وفتح الاسكندرية أيضا ساعد كثير رجال الدين للاتصال فيما بينهم. ولهذا نجد من القرن الثاني قبل المسيح حتى القرن الثاني بعد المسيح أنرا كبيرا في مدينة الاسكندرية، كله هذا جلب بواسطة الهنود باتصالهم المتدفق الذي أنتج تقديما ملبوسا حتى قبل الفلسفة الأفلاطونية، هذا وقد أشار «دين ميلبرن»، قائلا:- «ان ليس هناك أى شك بأن الصوفية الهندية تأسست أولا وبصورة دائمة في مصر» ويقال بأن أفلاطون نفسه

منشئ الفلسفة الأفلاطونية متأثر بالفلسفة الشرقية من النوعية الهندية ويرى المستر «دمن آنج» أيضا ذلك، ويذهب البعض في القول بأنه إذا كانت المسيحية انتشرت تدريجياً في العالم الغربي، فالآراء والمذاهب العقائدية تبث من الشرق وكل من «مانى» و«مزدك» يعاضدان ويبنيان مثل هذه الأنظمة الدينية ويوجد لهما أتباع وموالين في جهات آسيا الغربية، وتعاليمهما مبنيتان على التعاليم البوذية والمسيحية والحقيقة أن كلاماً من أواسط آسيا ومن بينهما تركستان وخراسان مدينة للبوذية قبل ظهور الإسلام فيها ماترويه الحقائق التي ذكرها الرحال الصيني «هيون تسيانج» .

وبعد ظهور الإسلام العلاقات الهندية العربية شدت بعضها البعض وأصبحت أكثر قوة وصلابة، هذا والعرب خاصة يحملون روحاً عالية نحو الهند حتى أصبح أحسن اسم يطلق على بناتهم هو اسم «هند» كما يطلقون على أجود نوع السيوف بالسيف الهندي .

والمؤرخون أيضا يرون أن هناك كانت توجد قبائل في عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام مثل قبائل «الجاتس» التي كانت تسكن العراق والعربية السعودية، والشيخ البخاري أيضا يذكر في كتابه «كتاب الأدب المفرد» حيث يروي عن مرض السيدة عائشة زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقوم بعلاجها طبيب هندي ينتمي الى قبيلة «الجاتس» .

والعرب منذ العهد الجاهلي مغرمون بشراء المبيعات والمنتجات الهندية حتى أن كثيراً من أسماء السلع الهندية امتزجت باللغة العربية وحتى بعضها هذه معروفة أيضا للرسول عليه الصلاة والسلام مثل كلمة «زنجبيل» وكافور وغيرهما، وبعض منها مثل كلمة «صندل» «تمبل» «قرنفال» «فلفل» «هيل» «جيفل» «زعفران» «باليل» «هاليل» «كرفاس» «نارجيل» .

واستطاعت الهند أن تجذب إعجاب الكثيرين من العرب مما جعل عددا كبيرا من المسافرين العرب يقومون بزيارة الهند عدة مرات ومن هؤلاء التجار والمسافرين العرب الذين بهرتهم جمال الهند وطبيعتها التاجر سليمان وأبو زيد الصيرافي، وأبوداف المهلهل، وبرح بن شهر يار، والمسعودي، وابن حوقل، والمدوسى والبرنى وابن بطوطة، والروح السامى والاعجاب الشديد عند العرب بمكن أن تحصل عليهما فى المؤلفات والكتابات فى التثر والشعر، ويقول أحد الشعراء العرب هذا القول :-

بجياتى أن هطول الأمطار فى الهند تجعل من قطراتها تساقط كأنها
أؤلؤ وياقوت للذين لا يملكون الحلى . .

ومن هنا من أرض الهند ياتى المسك، والكافور والعطور، للذين يحتاجون مثل هذه الأشياء .

ومن هنا من أرض الهند توجد أنواع الروائح الشذية وجوز الهند الفواح .

وهنا فى أرض الهند توجد الأسود والنمور والفيلة كما توجد الكراكى، والبيغاوات، والطواويس، والدواجن . هنا فى أرض الهند توجد أشجار الكاكو والتوابل والبهارات، وهنا أيضا تصنع السيوف التى لا تحتاج الى صقل، والحربات التى اذا استعملت فى الحرب تطيح بالعدو هزيمة .
من الذى ينكر ويحسد محاسن هذه الأرض، ليس أحد هناك سوى

الغبي .

وقد قال المؤرخ المعروف اليعقوبى عن الهند قائلا :- ،الهنود رجال علم وفكر، وقد أفاقوا كافة الأمم فى كل حقل طرقوه من العلم، حكمتهم

ومعرفتهم في الحلول الفلكية دائما صائبة وحسنة ، وهم متقدمون جدا في علم الطب أيضا ، ويملكون كتباً ومؤلفات كثيرة في علم المنطق والفلسفة التي تحمل المبادئ التي يحملونها كما أن هناك كتب ومؤلفات عديدة أخرى .
والمؤرخ أبو معشر يقول أيضا :-

«الهنود أول الخلق عرفوا بكثرة السكان ، وينتمون الى أرض حقا مقدسة ، وجميع الأمم القديمة تفوق عقليتهم الجبارة ، في توفيقهم في شتى المراحل العلمية ، والهنود في رأى جميع الأمم أمة ذات عقل واسع ، وهم منبع للعدالة والكفائة في الشؤون الادارية .»

ومثل هذا الشعور بالنسبة للهند تفتق وتبلور كثيرا وخاصة في أن الهند ساهمت كثيرا في تدعيم وتركيز الحضارة الاسلامية في شتى النواحي العلمية والأدبية والفلسفية والدينية والفضل يرجع الى الفهم الذي وجد في العرب بالنسبة للحضارة الهندية ، فالحضارة الهندية كان لها تأثير في العائلة الحاكمة للحلفاء العباسيين كالمصور ، وهارون الرشيد ، والمأمون ، لوجود وزراء ينتمون ، الى اصل برمكى وكانوا يسمون برامكة وكانوا يرجعون في أصلهم الى الأصل البوذى ورؤساء نوبهار من بلخ حسب ما ذكره العمري وفي مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، وأسس ملك هندي نوبهار حتى أن آخر البرامكة تلقى دراسة في كشمير وأتى الى بغداد حيث عين وزيرا .
وتحت رعاية العائلة البرمكية أصبحت بغداد مركزا للتعاليم الهندوكية وكما يظهر بأن اسم بغداد اسم هندي أصله مكونة من كلمة «بغ» وهى سانسكرتية أصلها «باج» بمعنى «رب» أو «اله» وكلمة «دا» أيضا سانسكرتية بمعنى «يعطى» أو «هبة» وكلمة بغداد كاملة معناها «هبة الله» .

ومن الناحية العلمية أيضا الهند كان لها دور كبير في ذلك، فاختراعات
لهند في الرياضيات مثل الكسور وكتابة الأرقام مثل «صفر»، كل هذه
انتقلت الى العالم العربي بعد أن قام «الفزاري»، بترجمة سيداننا أبرهماجيتا
في سنة ٧٧١ ميلادية وبعد مدة قصيرة استعار يعقوب ابن طارق بعض
المبادئ والنظريات الهندية الملكية في كتابه «تاريخ الفلك»، كما أن المؤرخ
البيروني قام بترجمة «ساريا سيداننا فيرامبيراء» وأدخل محمد ابن جابر
البيستاني علم النسبة والمثلثات التي تستعمل في الهندسة الأرياباتيية الهندية،
وهكذا انتقلت شتى الطرق الحسابية وعلم الجبر وعلم الفلك الى العلم العربي
بواسطة علماء كثيرين مثل «الخوارزمي» الذي أخذ اسمه مكانا مرموقا في
جداول علم اللوغارتمية، كما أشتهر ابن واشيا وأبو معشر، وتعرف
العالم العربي بواسطهما على بعض المصطلحات مثل «جيا»، والتي ظهرت
بالعربية «زج»، وكذلك مثل «جيب»، و «أوتش»، واللذان أصبحتا «أوج»،
و «أجين».

ومن كلمة «اجين»، جاءت الكلمة العربية «اوزين»، وبحذف النقطة
من الزاى تحولت الى كلمة «أرين»، ثم الى «آرين».

وقد قوبل العلم والأدب والطب الهندي بحماس كبير في عهد الخلفاء
العباسيين، كما أن التراجم العديدة وجدت طريقها الى اللغة العربية مثل
«شراكا»، و «سوشروتا»، كما أن كتباً طبية أيضا ترجمت مثل «أشتانجريديا»،
«ندانا»، و «سيداهيجا»، و«عقاقير الترياق»، وأمراض النساء.

وقد استطاع علي بن ربان الطبري أن يضم بعض العلوم عن الطب
الهندي في كتابه الضخم «فردوس الحكمة»، كما أن الطبيب الشهير الرازي

قد ذكر أيضا ذلك في كتابه الجامع المعروف بالخاوي الكثير من أنواع الأمراض البدنية ونوعيتها، وهكذا تعرف الأطباء العرب على النظم الهندية المتعلقة بعلوم الانسان والنفس وما على شاكلتهما .

وهناك عدة مواضع أخرى هندية أيضا اهتمت بدراستها، وكان لها تأثير بالغ مثل الموسيقى، والطرق الحربية، والسياسية، والكيمياء، والمنطق، والبلاغة، وعلم الفلك، والسير، وما هو أكثر من ذلك متعة هو نقل الأساطير القصصية الهندية الى العالم العربي مثل «كتاب بانشاتانترا» المعروف بـ «كلمة ودمنة» الذي يعبر عن القيم الاخلاقية بطريقة ملائمة بواسطة الحيوانات والطيور . وأول ما وصلت هذه القصص في ايران اذ ترجمها بروزو الى اللغة البهلوية، ثم انتقلت الى البلاد العربية حيث ترجمها الكاتب الايراني «ابن المقفع» الذي اعتنق الاسلام دينه له . هذا كما أن قصص «ألف ليلة وليلة» المشهورة تضم عدة أساطير وروايات، ليس من شك بأنها هندية المنبع . وكتاب «مهابارتا» ترجمه الى العربية أبو صالح بن شعيب ومرة ثانية ترجمه أبو الحسن علي الجبلي .

وهناك عدة قصص هندية ترجمت من اللغة السانسكريتية الى العربية وأهم هذه الكتب كتاب يحوى قصة حياة «بوذا» وأتباعه، وقد الفت في بداية الأمر كتب كثيرة، وأهمها كتاب اسمه «بوذا شارينا» ألفه أسواجوشي واكتشف ترجمته في أواسط آسيا الكاتب «استين» ومثل هذا العمل انتشر كثيرا في أواسط آسيا وغربها حتى المؤلفات الغرامية أيضا لعبت دورا هاما مثل «بارلام وأوصاف» قدمه «شناك» عن الأمير البوذى .

ومن خلال هذه المواق والمراجع والترجمات انبثق العمل العربي منذ ثمانمائة سنة وسمى هذا العمل بـ «بلوهر وبوذاسف» والكاتب ابن النديم

ذكر ذلك في كتابه «الفهرس» وأضاف بأن الشاعر البغدادي، ابن اللاحق ترجم ذلك الى الشعر العربي، وابن بابيا اقتبس من هذا الكتاب نفسه في كتابه «كتاب اكمال الدين واتمام النعمة»، وهناك أيضا كتابان عربيان آخران يحويان نفس الموضوع ككتاب «البدء» الذي يحوى عدة حكايات عن «بوذا»، وكتاب «بوذا سف مفرد» الذي يتضمن مواضيع فيها نصائح وارشادات التي ينبئ عنها كتاب «نهاية العرب في أخار الفرس والعرب»، ويذكر مؤلفو رسائل اخوان الصفا محاوره بلوهر مع بوذا سيف وهكذا دخلت أسطورة «ساكيا موني جوتم» البودية في بعض العقائد والمذاهب الاسلامية الا أن نتائجها لم يحمنها بعد فقهاء العلم والدين والتعاليم الهندية ايضا لها أثرها في التصوف الاسلامي مالا ينكر مداه .

وجاء هذا التأثير عن طريقين، طريق مباشر والثاني غير مباشر، ومن خلال الفلسفة الأفلاطونية، وأما ما يتعلق بالناحية المباشرة فمؤلفات المعتزلة تعطى بعض المصادر والحقائق، والسيد «نظام» رائد هذه المدرسة كان له ثلاثة تلامذة هم: أحمد بن هببت، فضل الحديبي وعمرو بن ابى بكر الجاحظ، فالاولان أدخلوا نظريات الرؤية الجميلة الهدف الهندوكى لمعرفة السر الالهى، أما نتاجات الأخير فتحوى على كثير من الآراء الهندية حيث يشير بأن الاشياء الصعبة الدينية كانت تناقش وتبحث بين رجال الدين والفكر من العرب والهنود مثل مشكلة «صفة العرب» فنصور الحلاج زار الهند وقوله أنا الحق يعكس الفلسفة البودية الهندية تمسك بعقيدة «الحلول» التي تغير تجسد الروح الالهية في الانسان نفسه، كما أن بايزيد البستامى تعلم الشئ الكثير عن عقيدة «فيرفانا» أى الفنا وعلى هذا الشكل

فإن غالبية العقائد وممارستها هي من وحدة «ويدانتا» مثل وحدة الوجود للرحلة الروحية، و«باتا» و«سولوك»، وهكذا دخلت المذاهب الهندية الأخرى في التصوف الإسلامي وفلسفة العارفين.

ومن أجل هذا سارت حركة التصوف قدما نظرا لأخذ قاعدتها من تلك الفلسفة الهندية في التنظيم والقوانين والطرق أيضا، واستمرت العلاقات العربية تتقوى أكثر مع الهند حتى أفول الخلافة العباسية، وفي أواسط القرن الثالث عشر «بغداد» سقطت في أيد المغول مما أدى إلى انتقال المدنية العربية إلى أرض الكنانة، ونتج عن ذلك نوعا من الأفول بالنسبة للمدنية العربية كان له تأثير قوى في أضعاف الصلة الوثيقة الهندية العربية.

ابن ماجد قبطان البواخر العربية ادحر إلى المحيط الهندي حيث أرشد الأسطول البرتغالي بقيادة «فازكوديجاما» وقاده من سواحل أفريقيا الشرقية إلى الميناء الهندي «كاليبكت»، ولكن بعد ذلك دحر البرتغاليون العرب والأتراك بعيدا عن المياه الهندية حيث كونوا صلة بين الهند وآسيا الغربية، وبعد أفول العهد الالفي السعيد نرى مرة ثانية بزوغ عهد جديد من العلاقات لكلا العالمين القديمين العربي والهندي.